دلالة الكون

كما أن الفطرة البشرية السليمة إذا تُركت ونفسها بدون مؤثر ، اهتدت إلى وجود الله ـ سبحانه ـ فإن العقل السليم ـ بأدنى تأمل وتفكُّر مُجرَّد عن الهوى والتقليد والعصبية ـ ينتهي حتماً إلى نتيجة ناصعة هي : وجود الله عز وجل .

ومجال التفكر والتأمل للعقل هو هذا الكون الكبير بسماواته وأرضه ، بإنسانه وحيوانه ، ونباته وجماده ، بكل ما فيه من الذَّرة إلى المجرَّة ، من الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة . والمتأمل في هذا الكون ـ بما فيه الإنسان ـ يجد فيه أربعة أدلة رئيسية تهديه إلى ربه الأعلى ، هذه الأدلة هي : الخلق ، والتسوية ، والتقدير ، والهداية .

• عناية القرآن بالكون

إن كل شيء في هذا الكون الكبير ـ إذا تأمله الناس حق التأمل ـ يأخذ بيدهم إلى الله ، ويدلهم على وجوده ، بل

على وحدانيته وتفرده بالملك والتدبير ، كما يدلهم على أسمائه الحُسنى ، وصفاته العليا .

الإنسان نفسه آية فريدة ، دالة على الله ، فهو وحده عالم خاص ، اجتمع له من حسن الصورة ، ومن قوى الإدراك والشعور والبصيرة ما لم يحظ به غيره .

ولهذا يوجِّه القرآن الإنسان إلى النظر والتفكر في نفسه وفيما يحيط به من عوالم ، موقناً أن هذا النظر والتفكر جدير بأن يهديه إلى الحق ، ويسوقه إلى الخير ، بما يرى ويلمس من آيات الله في الأنفس والآفاق .

يقول تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٠، ٢١).

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٨٥)؟ .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الروم: ٨).

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس: ١٠١)

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:١٦٤).

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (ق:٦-٨). ويعرض القرآن كثيراً من مظاهر الكون في الأرض أو في السماء. ثم يُعقِّب على ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(النحل:١١) أو ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(النحل:١٢) أو ﴿ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (النحل:١٣)

وينكر القرآن على الكافرين أنهم قد أوصدوا عقولهم ومشاعرهم، فلا ينتفعون بآيات الله ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (يوسف:١٠٥)، وكثيراً ما يختم الآيات بمثل هذه الفواصل:

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام:٣٢)؟ ، ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ (السجدة:٢٦)؟ ، ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (السجدة:٢٧)؟ .

ومما ذكرنا نعرف : لماذا يقسم القرآن كثيراً ببعض خلائق هذا الكون ومظاهره . إنه يريد أن ينبِّه عليها القلوب الغافلة ، ويَلْفِت إليها العقول المعرضة . . ولهذا أقسم باللَّيل والنهار ، والفجر والضُّحى ، والشمس والقمر ، والنجم والبحر ، والسماء والأرض ، والشفع والوتر ، وما نُبصر وما لا نُبصر .

● الأدلة الكونية الأربعة

والمتأمل في هذا الكون بما فيه الإنسان ـ يجد فيه أربعة أدلة رئيسية تهديه إلى ربه الأعلى . . هذه الأدلة هي : الخلق . . والتسوية . . والتقدير . . والهداية .

● دليل الخلق

المراد بالخلق هو الإيجاد والإحداث ، أى إبراز الشيء من العدم إلى الوجود . وذلك مثل : خلق الحياة في الكائنات الحية على ظهر الأرض التي بَثَّ فيها من كل دابة، وأنبت فيها من كل زوج بهيج . ومثل خلق الإنسان العاقل

الذي لم يكن شيئاً مذكورا ثم كان . وهو ما نبَّه عليه القرآن في أول سورة أُنزلت على رسول الله : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (العلق: ١، ٢). ومثل خلق السموات والأرض وهو أكبر من خلق الناس ، وقد دلَّنا علم الفلك الحديث على عظم الأجرام العلوية ، وسعة المسافات بينها ، حتى إنها لتقاس بملايين السنين الضوئية .

تُرى . . مَنْ خالق الحياة على هذه الأرض ؟ ومَنْ خالق هذا الإنسان العاقل المفكر ؟ . ومَنْ خالق هذا الكون كله بأرضه وسمائه ؟ هل وُجِدت الحياة ، ووُجد الإنسان ، ووُجِدت المخلوقات العُلوية والسفلية وحدها بلا مُوجدِ ؟ أم لا بد لها من خالق أوجدها ؟ ومَنْ هو ؟

ماذا يقول الملحدون في ظهور الحياة لأول مرة على هذا الكوكب ؟

إن ظهور الحياة ـ المادة الصمَّاء ـ وضع الماديين أمام مشكلة لم يجدوا لها حلاً ولا تفسيراً إلا على نحو ما قال الشاعر :

وبات يقدح طول الليل فكرته وفسَّر الماء بعد الجهد بالماء

من ذلك ما قال بعضهم : إن الحياة انتقلت إلى الأرض من العالم العُلوي عن طريق نيزك من النيازك الهائمة في الفضاء . ولكن السؤال يبقى : ومن خَلَقَ الحياة هناك في عالم الأفلاك ، أو في أي كوكب من الكواكب ؟

وقال بعضهم : إن المادة فيها طبيعة الحياة ، بعد تركيب وتناسق خاص . ولكن السؤال يبقى أيضاً : ومن ركبها ونسَّقها وهي مادة عمياء صمَّاء ؟

« ولا يسع العقل في أمر ظهور الحياة إلا أن يأخذ بأحد قولين : فإما أنها خاصة من خواص المادة ملازمة لها ، فلا حاجة بها إلى خالق مريد ».

« وإما أنها من صنع خالق مريد يعلم ما أراد ».

« فإذا كان العالم كله مادة ولا شيء غير المادة ، لزم من ذلك أن المادة أزلية أبدية ، لا أول لها ولا آخر ، وأنها موجودة منذ الأزل بكامل قواها ، وجملة خصائصها ، وأن خصائصها ملازمة لها حيث كانت ، بدون تفرقة بين المادة في هذا الكون من الفضاء ، والمادة في غير هذا المكان .

« ولا معنى إذن لظهور الحياة في كوكب دون كوكب ، وفي زمان دون زمان ، ولا معنى لأن تظل خصائص الحياة

بلا عمل ملايين من السنين ، بل فوق ملايين الملايين من حساب السنين ، ثم تظهر بعد ذلك في زمان يُحسب تاريخه بالآلاف ولا يقاس إلى الأزل الذي لا يدخل في حساب . فلماذا تأجلت خصائص الحياة كل هذا الزمان الذي لا يدخل في حصر ولا إحصاء ؟ ولماذا اختلف التوزيع والتركيب في أجزاء الفضاء وآماد الزمان ؟ ولماذا جاءت هذه الحياة مصادفة ، ثم دامت هذه المصادفة ، بكل ما يلزم لها من تدبير ، وليس للمادة الصمَّاء تدبير »؟

« على العقل أن يُبدى أسبابه لترجيح القول بهذه الفروض على القول بظهور الحياة من صنع خالق مريد . ولا نعرف أسبابا لترجيح الفرض العسير على الفرض اليسير ».

« والفرض اليسير هو الفرض الآخر ، وهو أن الحياة ظهرت من صنع خالق مريد »[1].

إن هذا الفرض اليسير هو الذي يحل لغز ظهور الحياة من المادة الصماء ، أو بعبارة أُخرى خروج الحي من الميت ، ويحل لغز الوجود كله ، حين يستجيب المرء إلى

---

(١) عن كتاب « الله » للأستاذ عباس محمود العقاد .

صوت البداهة والعقل ، ويرد الخلق والأمر كله إلى الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٥).

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس: ٣٦) .

هذا الدليل يسمى دليل «الخلق» أو دليل «الإبداع» أو «الاختراع».

وقد يوجد في صورة أُخرى فيسمى دليل «الحركة» سواء أكانت الحركة بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان ، أم الانتقال من حال إلى حال ، أو الحركة بمعنى الانتقال من حيِّز الإمكان إلى حيِّز الوجود .

وفحوى هذا الدليل : أن كل متحرك لا بد له من محرِّك ، وأن هذا المحرِّك لا بد أن يستمد الحركة من غيره . وهكذا إلى أن يقف العقل عند محرِّك أزلي قائم بذاته ، غير محتاج إلى غيره ، وإلا لزم الدور أو التسلسل إلى ما لا نهاية ، وكلاهما باطل ، وذلك المحرِّك هو الله .

وقد عرضه المتكلمون في صورة ثالثة وسموه دليل «الحدوث» .

قالوا : العالم متغير ، وكل متغير حادث ، وكل حادث لا بد له من محدث . ولا بد أن يقف العقل عند محدث غير حادث ، وإلا لزم الدور أو التسلسل المحالان . وذلك المحدث هو الله . والعلم الحديث يقر بحدوث العالم ، ويرجع حدوثه إلى ملايين يقدِّرها من السنين .

وعرضه الفلاسفة الإسلاميون ـ كالفارابي وابن سينا ـ في أسلوب آخر وسمُّوه « دليل الإمكان » .

وفحوى هذا الدليل : أن الموجودات ـ حسب القسمة العقلية ـ إما أن تكون واجبة الوجود جميعاً ـ وواجب الوجود هو الذي لا يتصور العقل عدمه ، لاستلزام المحال ـ وإما أن تكون ممكنة الوجود على معنى أنها يمكن أن توجد وألا توجد ، فليس هناك علة لذاتها تقتضي وجودها أو عدمه ، وإما أن يكون بعضها واجباً وبعضها ممكناً .

ومحال أن تكون كلها واجبة الوجود ، لأنها بين متحركة تحتاج إلى محرِّك ، وبين مركبة تحتاج إلى علة لتركيبها ، ولا بد أن تسبقها أجزاؤها .

ومحال أن تكون كلها ممكنة الوجود ، لأن الممكن يحتاج إلى علة تخرجه من حيِّز الإمكان إلى حيِّز الفعل .

بقي الفرض الثالث : وهو أن يكون بعضها ممكن الوجود وهو هذا العالم ، وبعضها واجب الوجود وهو الله ، وهو السبب الأول لوجود هذا العالَم . ومن المحال أن يكون مسبوقاً ، لأن الذي يسبقه يكون أولى بالوجوب .

● دليل التسوية

وإذا كان الخَلق يدل على الله ، فالتسوية أدل عليه ، والتسوية أخص من الخَلق ، إذ من الممكن أن يُخلق الشيء غير مسوى .

فمعنى تسوية الشيء : إحسان خَلقه ، وإكمال صنعته ، بحيث يكون مهيَّئاً لأداء وظيفته ، وبلوغ كماله المقدَّر لنوعه ، وإمداده بما به صلاحه وبقاؤه ، وجعله مستوياً معتدلاً ، متناسب الأجزاء بحيث لا يحصل بينها تفاوت يخل بالمقصود منها .

والقرآن يعبِّر عن هذه التسوية بعبارات مختلفة الألفاظ ، متقاربة الدلالة على المقصود، مثل الإحسان في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (السجدة:٧)، والإتقان في

قـولـه : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (النمل:٨٨)، وإعطاء كل شيء خلقه في قوله تعالى على لسان موسى : ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه:٥٠)، ومعنى إعطائه خلقه : إعطاؤه من الخَلق والتصوير ما يصلح به لما خُلقَ له .

كما عبَّر عن هذه التسوية بنفى التفاوت في خَلق الله في قوله تعالى : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ (الملك:٣)

وهـذه التسوية ظاهرة في الكائنات كلها على وجه العموم ، وفي الكائنات الحية على وجه الخصوص ، وفي الإنسان على وجه أخصّ .

(أ) فالأرض ـ مثلاً ـ قد سوَّاها صانعها ، بحيث تصلح مهاداً ومستقراً لنوع الإنسان ـ فلهذا مدَّها وبسطها ، وجعلها ذلولاً ، ألقى فيها رواسي كالأوتاد لها حتى لا تميد ، وباركَ فيها وقدَّر فيها أقواتها ، فلو كانت قشرة الأرض كلها صخرية ، أو كلها يابسة ، أو كلها محيطات ، ما صلحت للإنبات وإخراج الثمرات .

ولو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون والأوكسجين ، ولما أمكن وجود حياة للنبات .

(ب) وكل ما على الأرض من كائنات حية ، قد سُوِّيت خلقته ، وأُحكمت صنعته ، بحيث يؤدي وظيفته في يسر وسهولة .

فالجمل ـ مثلاً ـ قد أعطي الصورة الخَلقية التي تلائم عيشته وأسفاره الطويلة في الصحراء ، فلهذا خُلق برقبة طويلة ، تُعلى رأسه ، وتنأى بعينيه عن غبار الرمَالَ ، كما مُنحَ شفَّة مشقوقة يستطيع أن يتناول بها أشواك البوادي دون أن تؤذيه ، وأُعطي سَناماً يختزن فيه الدهن إن أعوزه الطعام يوماً في الصحاري القاحلة ، ولم تنته رجله بحافر يغوص في الرمال كحوافر الخيل والبغال والحمير ، بل انتهت بخف يقدر به على اجتياز الرمال دون أن يسوخ فيها ، ولهذا سمُّوه «سفينة الصحراء». وهكذا نجد أثر التسوية في كل الأحياء .

فكل حي أُعطي الوسائل التي يحصل بها على غذائه الملائم ، وأُعطي الأجهزة ما يهضم به هذا الطعام .

فالحيوانات المفترسة أُعطيت من الأنياب والمخالب ما تتمكن به من الافتراس ، كما كُوِّن جهازها الهضمي بحيث يهضم اللَّحم النيئ .

والأنعام التي تأكل العُشب أُعطيت كرشاً كبيراً يُعد بمثابة «مخزن» لما تلتهمه بسرعة ، إلى أن تجترَّ وتُعيد مضغه مرة أُخرى .

والطيور أُعطيت مناقير تساعدها على التقاط غذائها ، واتخذ المنقار صورة من الطول أو القِصَر أو الاستدارة أو غيرها ، مما يناسب نوع الغذاء الذي يلائمه .

كما زُوِّدَت الكائنات الحية جميعها بأسلحة مناسبة تدافع بها عن نفسها في صراع البقاء بينها وبين غيرها . فالناب سلاح ، والمخْلب سلاح ، والقرن سلاح ، والسُّم سلاح ، والمنقار المدبَّب سلاح ، والزعانف الحادة سلاح ، وسرعة العدو سلاح ، والقدرة على الطيران سلاح ، والقدرة على الاختفاء سلاح ، ولولا هذه الأسلحة التي زُوِّدَت بها تلك الأحياء ، لأفنى قويّها ضعيفها وأباد كبيرها صغيرها .

(جـ) تسوية الإنسان : وحين ندع الطبيعة وندع الحيوانات وما سُوِّيَت له ، ونرتقي إلى الانسان ، نجد مظاهر التسوية وأماراتها أوضح وأعظم ، فقد خُلِقَ الإنسان في أحسن تقويم . إن الإنسان قد خُلِقَ لمهمة جليلة وهي السيادة على الأرض والخلافة فيها . ولهذا أُعطي من الخصائص والمميزات ، والأجهزة المادية والروحية ، ما يُعينه على أداء وظيفته وييسر له سبيل مهمته .

ولو نظرنا إلى التكوين البدني للإنسان لرأينا العجب العجاب من عظمة التسوية ، ودقة التصميم ، وتناسق الأجهزة المختلفة التي لا يُعد شيئاً بجانبها تصميم أي جهاز يخترعه إنسان منا ، فتُدهش له العقول ، وتنطلق بمدحه الألسنة والأقلام .

الجهاز العضلي ، والجهاز العظمي . والجهاز الهضمي . والجهاز الدموي . والجهاز التنفسي . والجهاز التناسلي . والجهاز اللِّمفاوي . والجهاز العصبي . والجهاز البولي . وأجهزة الذَوق والشم والسمع والبصر . كل منها آية من الآيات تسجد لها العقول ، وتخشع لها لقلوب .

تقول مجلة العلوم الإنجليزية : « إن يد الإنسان في مقدمة العجائب الطبيعية الفذَّة وإنه من الصعب جداً ـ بل من المستحيل ـ أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف . فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك ، ثم تثبته في الوضع الملائم للقراءة ، وهذه اليد هي التي تُصحِّح وضعه تلقائياً . وحينما تُقلِّب إحدى صفحاته تضع أصبعك تحت الورقة ، وتضغط عليها بالدرجة التي تقلِّبها بها ، ثم يزول الضغط بقلب الورقة ، واليد تمسك القلم وتكتب به . وتستعمل كافة الآلات التي تلزم الإنسان من مِلعقة ، إلى سكين ، إلى آلة الكتابة ، وتفتح النوافذ وتغلقها ، وتحمل كل ما يريده الإنسان . واليدان تشتملان على سبع وعشرين عظمة ، وتسع عشرة مجموعة من العضلات ، لكل منها »[1].

« وإن جزءاً من أُذن الإنسان ـ الأُذن الوسطى ـ هو سلسلة من نحو أربعة آلاف (قوس) دقيقة معقدة ، متدرجة بنظام بالغ ، في الحجم والشكل ، ويمكن القول بأن هذه

---

(١) عن كتاب «الله والعلم الحديث».

الحنيات تشبه آلة موسيقية . ويبدو أنها مُعَدَّة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ بشكل ما ، كل وقع صوت أو ضجة من قصف الرعد إلى حفيف الشجر . فضلاً عن المزيج الرائع من أنغام كل أداة موسيقية في الأوركسترا ووحدتها المنسجمة »[1].

« ومركز حاسة الإبصار في العين التي تحتوى على مائة وثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء وهي أطراف الأعصاب، ويقوم بحمايتها الجفن والأهداب الذي يقيها ليلاً ونهاراً والذي تعتبر حركته الإرادية ، الذي يمنع عنها الأتربة والذرّات والأجسام الغريبة ، كما يكسر من حدة الشمس بما تلقي الأهداب على العين من ظلال . وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين ، أما السائل المحيط بالعين والذي يُعرف باسم الدموع فهو أقوى مُطَهِّر »[2].

« وجهاز الذّوق في الإنسان هو اللِّسان ، ويرجع عمله إلى مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة في حلمات

---

(١) عن كتاب «العلم يدعو إلى الإيمان» الفصل الثامن «غرائز الحيوانات».

(٢) عن كتاب «الله والعلم الحديث».

غشائه المخاطي . ولتلك الحلمات أشكال مختلفة ، فمنها الخيطية والفطرية والعدسية ، ويغذي الحلمات فروع من العصب اللِّسانى البلعومى ، والعصب الذَوقي ، وتتأثر عند الأكل الأعصاب الذَوَّاقة ، فينتقل الأثر إلى المخ . وهذا الجهاز موجود في أول الفم ، حتى يمكن للإنسان أن يلفظ ما يحس أنه ضار به ، وبه يحس المرء المرارة والحلاوة والبرودة والسخونة والحامض والمالح ، واللاذع ونحوه . ويحتوي اللِّسان على تسعة آلاف من نتؤات الذوق الدقيقة يتصل كل نتوء منها بالمخ بأكثر من عصب . فكم عدد الأعصاب ؟ وما حجمها ؟ . وكيف تعمل منفردة ، وتتجمع بالإحساس عند المخ »؟[1].

« ويتكون الجهاز العصبي ـ الذي يسيطر على الجسم سيطرة تامة ـ من شعيرات دقيقة تمر في كافة أنحاء الجسم . . وتتصل بغيرها أكبر منها . وهذه بالجهاز المركزي العصبي . فإذا ما تأثر جزء من أجزاء الجسم ، ولو كان ذلك لتغير بسيط في درجة الحرارة ، بالجو المحيط ، نقلت

---

(١) عن كتاب « الله والعلم الحديث » .

الشعيرات العصبية هذا الإحساس إلى المراكز المنتشرة في الجسم . وهذه توصل الإحساس إلى المخ حيث يمكنه أن يتصرف . وتبلغ سرعة سريان الإشارات والتنبيهات في الأعصاب مائة متر في الثانية»[1].

«ونحن إذا نظرنا إلى الهضم على أنه عملية في معمل كيماوي ، وإلى الطعام الذي نأكله على أنه مواد غفل ، فإننا ندرك توًّا أنه عملية عجيبة ، إذ تهضم تقريباً كل شيء يؤكل ما عدا المعدة نفسها».

«فأولاً نضع في هذا المعمل أنواعاً من الطعام كمادة غفل دون أي مراعاة للمعمل نفسه ، أو تفكير في كيفية معالجة كيمياء الهضم له . فنحن نأكل شرائح اللحم والكرنب ، والحنطة والسمك المقلي . وندفعها بأي قدر من الماء».

«ومن بين هذا الخليط تختار المعدة تلك الأشياء التي هي ذات فائدة ، وذلك بتحطيم كل صنف من الطعام إلى أجزائه الكيماوية دون مراعاة للفضلات ، وتعيد تكوين الباقي إلى بروتينات جديدة تصبح غذاءً لمختلف الخلايا . وتختار أداة الهضم الجير والكبريت واليود والحديد وكل

---

(١) عن كتاب «الله والعلم الحديث» .

المواد الأخرى الضرورية ، وتعني بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية ، وبإمكان إنتاج الهرمونات ، وبأن تكون جميع الحاجات الحيوية للحياة حاضرة في مقادير منظمة ، ومستعدة لمواجهة كل ضرورة وهي تخزن الدهن والمواد الاحتياطية الأخرى للقاء كل حالة طارئة مثل الجوع ، وتفعل ذلك بالرغم من تفكير الإنسان وتعليله . إننا نصب هذه الأنواع التي لا تحصى من المواد في هذا المعمل الكيماوي ، بصرف النظر كلية تقريباً عما نتناوله . معتمدين على ما نحسبه عملية ذاتية ـ أوتوماتيكية ـ لإبقائنا على الحياة . حين تتحلل هذه الأطعمة وتجهز من جديد ، تقدم باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا ، التي تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشري كله على وجه الأرض ، ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمراً ، وألا يورد سوى تلك المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية المعينة ، لتحويلها إلى عظام وأظافر ولحم وشعر وعينين وأسنان ، كما تتلقاها الخلية المختصة».

« فههنا إذن معمل كيماوي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الإنسان . وههنا نظام للتوريد

أعظم من أي نظام للنقل أو التوزيع عرفه العالم ، ويتم كل شيء فيه بمنتهى النظام»[1].

«ومنذ الطفولة إلى سن الخمسين مثلاً لا يُخطئ هذا المعمل خطأً ذا بال ، مع أن المواد نفسها التي يعالجها يمكن أن تكون بالفعل أكثر من مليون نوع من الجزئيات ، وكثير منها سام».

يقول الأستاذ «أ . ك . موريسون» : «إن شرح العمل العجيب الذي يقوم به معمل المعدة ، ومثل هذه المجموعة من المعجزات لا يوجد ولا يمكن أن يحدث بأى حال ، في غيبة الحياة . وكل ذلك يتم في نظام كامل ، والنظام مضاد إطلاقاً للمصادفة ، أليس ذلك من صنع الخالق»؟!

(د) على أن هناك شيئاً هو أجل من كل ما ذكرناه من مظاهر التسوية في خَلق الإنسان ، ذلك هو العقل .

إن الإنسان لم يُمنح قوة عضلية كقوة الثور ، ولا سرعة في العدو كسرعة الحصان ، ولا صبراً على المشقة كصبر الجمل ، ولا أجنحة يُحلِّق بها كأجنحة الطير ، ولا أنياباً

---

(١) الله والعلم الحديث ، وانظر : «العلم يدعو للإيمان» ـ «فصل أعظم معمل كيماوي في العالم» ـ يعني المعدة !

ومخالب كأنياب الأسد ، ولا أعيناً مكروسكوبية (مكبرة) كأعين الحشرات الدقيقة ، ولا بصراً تلسكوبياً (مقرباً مكبراً) كبصر الصقور ، ولا غرائز هادية كغرائز النحل والنمل والحمام الزاجل ونحوها .

ولكن الواقع أن الإنسان أُعطي ما هو أعظم مما أُعطيته هذه الأمم من الحيوان والطير مجتمعة . أُعطي العقل المفكر وأُعطي الروح المبصر .

لقد استطاع بعقله أن يستأنس الثور والحصان والجمل ، وغيرها من الدواب الضخمة في جثثها ، القوية في بدنها ، وأن يُسَخِّرها في حاجاته ومعيشته .

واستطاع أن يصنع لها عجلة تجرها ، فتضاعف قوتها وسرعتها ، وبهذا أطال الإنسان في سيقانها ، وقوّى من ظهورها .

واستطاع الإنسان بما اخترعه من أجهزة ميكانيكية أن يطوي المسافات الشاسعة في الزمن القليل ، وأن يضرب بين القارات حتى جعل العالم « قريته الكبرى »، وأن يجعل كل عمله اليدوي إدارة الأجهزة والسيطرة عليها .

استطاع أن يغوص في البحار كالحيتان ، وأن يَحَلِّق في الهواء كالطيور ، بل فاق الحيتان وسبق الطيور .

لقد تَحكَّم الإنسان في قوة الطبيعة ، ونسف الصخور ، وشق الأنهار ، واستخدم البخار والغاز والكهرباء ، وفَجَّرَ ـ أخيراً ـ الذَّرة ، وغزا الفضاء الفسيح ، وحاول الصعود إلى الكواكب ، وصنع هذا الشيء العجيب المدهش (الكمبيوتر).

إن الإنسان لم يُمنح عيناً مكروسكوبية (مكبرة) كأعين الحشرات الدقيقة ولا بصراً تلسكوبياً (مقرباً مكبراً) كبصر الصقر ، ولكنه استطاع بعقله أن يصنع «ميكروسكوباً» كهربائياً يرى به «بيكتريا» كانت غير مرئية ، بل يرى الكائنات الصغيرة التي تعضها .

واستطاع بتلسكوبه أن يبصر «سديماً» بلغ من الدِّقة والصغر أنه يحتاج إلى مضاعفة قوة أبصاره مليوني مرة ليراه .

ولم يُمنح الإنسان حاسة فائقة للسمع كما أُعطيته الحيوانات التي تسمع أصواتاً خارج دائرة الاهتزازات الخاصة بنا . ولكنه استطاع بفضل وسائله أن يسمع ذبابة تطير على بُعد أميال ، كما لو كانت فوق طبلة أُذنه ، ويستطيع بمثل تلك الأدوات أن يُسجِّل وقع شعاع الشمس .

فهل يكون كل هذا العمل العجيب للعقل الإنساني ليس إلا نتيجة تفاعل في المادة التي يتكون منها الجسم - وقع بالمصادفة العمياء؟

● دليل التقدير

التقدير : هو خلق كل شيء بمقدار وميزان وترتيب وحساب ، بحيث يتلاءم مع مكانه وزمانه ، وبحيث يتناسق مع غيره من الموجودات القريبة منه والبعيدة عنه ، فلا يعطل وظيفتها ، أو يعوق سيرها لما خُلقت له ، وبحيث يتم بين المخلوقات كلها توازن شامل ، ينتظم به سير الوجود كله .

فإذا كانت التسوية إعطاء كل شيء من الخَلق والتصوير ما يؤدي به وظيفته على الوجه اللائق به ، فإن التقدير أن يكون بالقَدْر الذي ينفعه في نفسه ولا يضر غيره ، ولا يصطدم بالمخلوقات الأخرى ، وذلك يتم إذا ما وُضِعَ في مكانه الملائم وزمانه المناسب ، وبالكم الذي يصلح ولا يفسد ، وعلى الكيفية التي يتحقق بها التناسق والتوازن بين وحدات الكون وأجزائه .

وهذا التقدير ظاهرة عامة في كل شيء كما نبَّه القرآن على هذه الحقيقة إذ قال : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد:٨) ، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢)، ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق:٣)، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر:٤٩)، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الحجر:٢١)

الماء ـ مثلاً ـ سوَّاه الله بمعنى أنه أحسن خَلقه ، وهيأه لأداء وظيفته من السقي والري والتطهير والتنظيف ، ونحو ذلك . ولكن الماء الذي خلقه الله وأسكنه في الأرض خلقه بِقَدَر ، وأنزله بِقَدَر ، بحيث لا يقل عن حاجة الخلق فيكون الجدب والقحط ، ولا يزيد عنها فيكون الغرق والضرر ، ولا تطغي المحيطات على اليابسة ، ولا الملح على العذب ، وإلى هذا يشير القرآن : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ (المؤمنون:١٨)

الشمس : أحسن الله خَلقها لتؤدي وظيفتها في إمداد الحياة بالطاقة الضوئية والحرارية ، ولكنه خلقها بحيث

تجري إلى غايتها في مدار محدود ، لا تصطدم بكوكب آخر ، ولا تقترب من الأرض قرباً يحرق أحياءها ، ولا تبعد عنها بعداً يحرمها الحرارة اللازمة للحياة فيها . وإلى هذا يشير القرآن : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس:٣٨-٤٠)، وكل إنسان في أي عصر يستطيع بتأمله وإدراكه الفطري أن يشهد ـ على قدر حاله ـ أن كل شيء في الكون قد خُلِقَ بحساب ومقدار ، وجاء العلم الحديث بكشوفه ووسائله ، فأماط اللِّثام عن الحكمة البالغة ، والأسرار العجيبة الكامنة وراء ما بين المخلوقات من مقادير وحدود ، وضوابط وموازنات .

إن في الفضاء الفسيح الذي لا نعرف له حدوداً ، ملايين الملايين من النجوم السابحة في أجوازه ، وبعض هذى أكبر من الشمس بآلاف المرات وملايينها ، كالشعرى الذي هو أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونورها ضعف نور الشمس

بخمسين مرة ، وسهيل أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة . . وهكذا .

ويقول الفلكيون : « إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم،ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة . وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه.هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أى احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر أو يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادى ، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة ، وهو احتمال بعيد ، وبعيد جداً إن لم يكن مستحيلاً ».

ومع هذا التباعد بين كل نجم وآخر ، فقد وُضِعَ كل نجم في مكانه بحيث يتسق في آثاره وتأثراته مع سائر النجوم والكواكب ، وتؤدي جميعها مهمتها المنوطة بها في بناء الكون وسير حركته .

ولنأخذ الشمس والقمر والأرض وما بينها من علاقات مثلا لهذا التقدير المحكم الدقيق الذي كان من آثاره ظهور الحياة الإنسانية على الأرض واستمرارها إلى اليوم .

إن هذه الشمس هي الوحيدة بين آلاف النجوم ، التي تصلح لجعل الحياة على الأرض ممكنة ، وإن حجمها وكثافتها ودرجة حرارتها وطبيعة أشعتها ودرجة بعده عنا ، كل ذلك لازم لقيام حياتنا على كوكبنا الذي هو الأرض .

يقول العلامة (أ . كريسي موريسون) : « تدور الكرة الأرضية حول محورها مرة في كل ٢٤ ساعة ، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة ، والآن افرض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة ، ولم لا ؟ عندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو الآن عشر مرات ، ففي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار ، وفي اللَّيل قد يتجمد كل نبت في الأرض».

« إن الشمس التي هي مصدر كل حياة تبلغ درجة حرارة سطحها ١٢٠٠ درجة فهرنهايت ، وكرتنا الأرضية بعيدة عنها إلى حد يكفي أن تمدنا هذه النار الهائلة بالدفء الكافي ، لا بأكثر منه ، وتلك المسافة ثابتة بشكل عجيب . وكان تغيرها في خلال ملايين السنين من القلة بحيث أمكن استمرار الحياة كما عرفناها».

« ولو أن درجة الحرارة على الكرة الأرضية قد زادت بمعدل خمسين درجة في سنة واحدة فإن كل نبت يموت ، ويموت معه الإنسان حرقاً أو تجميداً ».

« والكرة الأرضية تدور حول الشمس بمعدل (١٨) ثمانية عشر ميلاً في الثانية ، ولو أن معدل دورانها كان مثلاً (٦) ستة أميال أو أربعين ميلاً في الثانية فإن بعدنا عن الشمس أو قربنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع حياتنا ».

« والنجوم ـ كما نعلم ـ تختلف في الحجم ، وأحدها يبلغ من الضخامة حداً لو كان هو شمسنا لكان محور الكرة الأرضية داخلاً في سطحه لمسافة ملايين الأميال ».

والنجوم كذلك تختلف في طراز إشعاعها ، وكثير من أشعتها يميت كل نوع معروف من أنواع الحياة . وتتراوح كثافة هذا الإشعاع وحجمه ، بين ما هو أقل من إشعاع شمسنا ، وما هو أكثر منه عشرة آلاف مرة . ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي فقط لكنّا تجمدنا ، ولو أنها زادته بمقدار النصف لأصبحنا رماداً ، من زمن بعيد ».

« ومن ذلك نجد أن شمسنا هي الصالحة لحياتنا من بين ملايين الشموس غير الصالحة لهذه الحياة ».

« ويبعد القمر مسافة ٤٢٠,٠٠٠ ميل ، ويُذكِّر المدُّ الذي يحدث مرتين تذكيراً لطيفاً بوجود القمر ، والمدّ الذي يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى ستين قدماً في بعض الأماكن ، بل إن قشرة الأرض تنحني مرتين نحو الخارج ، مسافة عدة بوصات بسبب جاذبية القمر . ويبدو لنا كل شيء منتظماً لدرجة أننا لا ندرك القوة الهائلة التي ترفع مساحة المحيط كلها عدة أقدام ، وتحني قشرة الأرض التي تبدو لنا صلبة للغاية ».

« والمريخ له قمر ، قمر صغير لا يبعد عنه سوى ستة آلاف من الأميال ، ولو كان قمرنا يبعد عنا ٥٠,٠٠٠ ميل مثلاً ، بدلاً من المسافة الشاسعة التي يبعد بها عنا فعلاً ، فإن المدَّ كان يبلغ من القوة بحيث إن جميع الأراضي التي تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق ، يزيح بقوته الجبال نفسها ، وفي هذه الحالة ربما كانت لا توجد الآن قارة قد ارتفعت من الأعماق بالسرعة اللازمة ، وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب ، وكان المدَّ الذي في الهواء يُحدث أعاصير كل يوم »[1].

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان ـ الفصل الأول ـ « عالمنا الفذ » .

تُرى مَن الذي وضع كل هذه المخلوقات في مواضعها الصحيحة ، قَدَّر أحجامها وأشكالها وأبعادها ونسبها وعلاقاتها هذا التقدير المحكم العجيب ؟ هل عند الماديين الجاحدين من جواب يشفي الصدور ؟ كلا .

أما نحن فجوابنا : إنه « الله » الذي ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢) ، ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (الأنعام:٩٦).

الهواء : ولو تركنا الكواكب والنجوم وعلاقتها بالأرض ونظرنا إلى الهواء : ذلك الغلاف الغازي الذي يُحيط بهذه الكرة لوجدنا العلم يقول :« إن هذا الهواء المكوَّن من الأوكسجين والنتروجين على الأخص ـ لا يزيد على جزء من مليون من كتلة الكرة الأرضية . وكان يمكن أن تمتصه الأرض في فترة تكوينها ـ وفق النظرية السائدة الآن ـ وكان يمكن أن يكون بنسبة أكبر كثيراً مما هو عليه . وفي كلتا الحالتين لم يكن وجود الإنسان على ظهر الأرض ممكناً ».

« وسمك الهواء أو كثافته أمر مقصود مقدَّر أيضاً ، فلو كان أرق وأرفع كثيراً مما هو الآن ، لكانت بعض الشهب التي تحترق الآن كل يوم بالملايين في الهواء الخارجي تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية . وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق . أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة ، كان يمزقه إرباً إرباً ، من مجرد حرارة مروره .

إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيماوي التي يحتاج إليها الزرع ، والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات ، دون أن تضر بالإنسان إلا إذا عرَّض نفسه لها مدة أطول من اللازم [1] .

وإذا نظرنا إلى الغازات التي نتنسمها فسنجد الأوكسجين هو نسمة الحياة لكل الكائنات الحيوانية فوق الأرض ، ومنها الإنسان ، ولا يستطاع الحصول على هذا الغاز إلا من الهواء ، وتحدد نسبة الأوكسجين في الهواء عادة بـ٢١٪ ، ولو زادت هذه النسبة إلى ٥٠٪ مثلاً أو أكثر ماذا كان

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان ـ الفصل الثاني ـ « الهواء المحيط بنا ».

يحدث ؟ . يقول العلم : إن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال ، لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تُلهب الغابة كلها حتى لتكاد تنفجر .

ومن المعلوم أن كل الكائنات الحيوانية تمتص الأوكسجين ، وتلفظ ثاني أوكسيد الكربون ، أما النبات فهو على العكس . يستعمل ثاني أوكسيد الكربون ويلفظ الأوكسجين . فهناك تبادل مشترك بين الإنسان والحيوان من جانب ، وبين جميع النباتات والغابات من جانب آخر . فما نطرده نحن تنتفع به هي ، وما تطلقه هي نتنسمه نحن ، وبدونه تنتهي حياتنا بعد خمس دقائق .

فلو لم تكن هذه المقايضة قائمة ما استمرت الحياة إلى اليوم .

فلو كانت الحياة كلها حيوانية ، لكانت الآن قد استنفدت كل الأوكسجين .

ولو كانت الحياة كلها نباتية ، لكانت قد استهلكت كل ثاني أوكسيد الكربون .

وفي كلتا الحالتين ، قد تنتهي هذه الحياة وتلك . فإنه متى انقلب التوازن تماماً ذوي النبات أو مات الإنسان فيلحق به الآخر وشيكاً [1].

ترى من الذي قدَّر هذا التناسق ، وأقام هذا التوازن ، ووضع هذا النظام المحكم ؟

فإذا تركنا عالَم الغازات ، ونزلنا إلى عالَم النبات والحشرات ، رأينا مظاهر شتى لهذا التوازن والتقدير . ومن هذه المظاهر ما ذكره العلاّمة (أ . كريسي موريسون) في فصل « ضوابط وموازين » من كتابه . قال « ما أعجب نظام الضوابط والموازنات ، الذي منع أي حيوان ـ مهما يكن من وحشيته ، أو ضخامته ، أو مكره ـ من السيطرة على العالم منذ عصر الحيوانات القشرية المتجمدة ».

« غير أن الإنسان وحده قد قلب هذا التوازن الذي للطبيعة ، بنقله النباتات والحيوانات من مكان إلى آخر ، وسرعان ما لقي جزاءه القاسي على ذلك ، ماثلاً في تطور آفات الحيوان والحشرات والنبات ، والواقعة الآتية فيها مثل بارز على أهمية تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الإنسان ».

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان ـ الفصل الثالث ـ « الغازات التي نتنفسها ».

« فمنذ سنوات عديدة زُرِعَ نوع من الصبَّار في أستراليا ، كسياج وقائي ، ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة إنجلترا ، وزاحم أهالي المدن والقرى ، وأتلف مزارعهم ، وحال دون الزراعة ، ولم يجد الأهالي وسيلة لصده عن الانتشار ، وصارت أستراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع الصامت ، يتقدم في سبيله دون عائق ».

« وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم ، حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصبَّار ولا تتغذى بغيره ، وهي سريعة الانتشار ، وليس لها عدو يعرفها في أستراليا ».

« وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلَّبت على الصبَّار ، ثم تراجعت ، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية ، تكفي لصد الصبَّار عن الانتشار إلى الأبد ».

« وهكذا توافرت الضوابط والموازين ، وكانت دائما مجدية ».

« ولماذا تسيطر بعوضة « الملاريا » على العالم إلى درجة كان أجدادنا يموتون معها أو يكسبون مناعة منها ؟ . ومثل

ذلك يقال عن بعوضة الحمى الصفراء ، التي تقدمت شمالاً في أحد الفصول حتى وصلت إلى نيويورك . . ولماذا لم تتطور ذبابة « تسي تسي » حتى تستطيع أن تعيش في غير مناطقها الحارة ، وتمحو الجنس البشري من الوجود »؟ .

« يكفي أن يذكر الإنسان الطاعون والأوبئة والجراثيم الفاتكة التي لم يكن له وقاء منها حتى الأمس القريب . وأن يذكر كذلك ما كان له من جهل تام بقواعد الوقاية الصحية ، ليعلم أن بقاء الجنس البشري ـ رغم ذلك ـ يدعو حقاً إلى الدهشة »[1] .

ولو تركنا ذلك كله وذهبنا إلى الجسم الإنساني نتأمل في أعضائه وأجهزته وخلاياه ، وما بينها من تضامن وتعاون ، ومن تناسق وتوازن ، لأدركنا من دقة التقدير وإحكام التدبير ، ما لا ينقضي منه العجب . وحسبنا أن نعرف من هذه الأجهزة جهاز « الغُدد الصمَّاء » التي عاش الإنسان ألوف السنين وملايينها قبل أن يعرف وظائفها . فقد بيَّن العلم أنها معامل كيماوية صغيرة ، صغيرة في

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان فصل ـ « ضوابط وموازين » .

الجسم ، تمده بالتركيبات الكيماوية الضرورية له ضرورة مطلقة ، وتؤثر في وجوه نشاطه ، والتي يبلغ من قوتها أن جزءاً من بليون منها تُحدث آثاراً بعيدة المدى في جسم الإنسان . كما بيَّن العلم أنها مرتبة ، يُنظِّم كل منها غيرها ، ويضبطه ويوازنه ، وأن إفراز غدة يكمل إفراز الأخرى .

يقول الأستاذ (أ.ك.موريسون) : « ومن المتفق عليه : أنه إذا اختل توازن هذه الإفرازات المعقَّدة تعقيداً مدهشاً ، فإنها تُحدث اختلالاً ذهنياً وجسمانياً بالغ الخطر .

لو عمَّت هذه الكارثة لاندثرت المدنية وانحطت البشرية إلى حالة الحيوانات ، هذا إذا بقيت على قيد الحياة »[1].

تُرى كيف تحقق كل هذا التقدير ، وكيف تم كل هذا التدبير ، إذا لم يكن هناك خالق أعلى يُقَدِّر فيُحسن التقدير ، ويُدَبِّر فيُحكم التدبير ؟

● دليل الهداية

خلق الأشياء المبثوثة في هذا الكون دليل على الله ، وإحسان خلقها وتسويتها لتؤدي ما خُلِقت له دليل آخر

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان فصل ـ « ضوابط وموازين » .

على الله ، وخلق هذه الأشياء المسوَّاة بمقدار وترتيب يُحقِّق التوازن والتناسق بينها وبين غيرها دليل ثالث على الله .

وبقى هنا دليل رابع هو دليل « الهداية » . فكما أن كل شيء في الكون قد خُلِق على الصورة التي تناسب وظيفته ، وتعينه على أدائها ، فهو أيضاً قد هُدِيَ إلى ما خُلِقَ لأجله ، وألهم غاية وجوده ، ويُسِّر له الطريق ليدرك غاية الكمال الذي يناسبه . وهذه هى الهداية . إنها شيء فوق الخَلْق والتسوية والتقدير ، إنها الإلهام أو التعليم . سمه ماشئت . إنها الهداية التي يتم بها التقدير ، ويكمل الخَلْق والتدبير .

هذه الهداية عامة مبثوثة في كل شيء في الكون ، حى أو جامد ، صامت أو ناطق ، عاقل أو غير عاقل . فليست هى هداية خاصة بالمكلفين أو العقلاء ، كما قد يُظن لأول وهلة . وليست مقصورة على الكائنات المتحركة بالإرادة كالناس والدواب والطيور والحشرات ، وهذا ما ذكره القرآن على لسان موسى حين سأله فرعون : ﴿ **فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ** ﴾(طه:٤٩)؟ ـ وقد كان يَدَّعي هو أنه الرب الأعلى ـ فقال موسى : ﴿ **رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ**

هَدَىٰ ﴾(طه: ٥٠) فما من شيء في الوجود إلا أُعطي هداه ، كما أُعطي خلقه .

(أ) ومن مظاهر هذه الهداية : أن كل حيوان أُعطي من الحواس والأجهزة الخاصة ما يُعينه على معيشته ، وأداء وظيفته المنوطة به . فتجد طائراً كالصقر كأنما أُعطي بصراً تلسكوبيا ، يستطيع أن يشاهد به ـ وهو مُحَلِّق في الجو ـ صيده الصغير على الأرض . ولا بد أن للحشرات الدقيقة عيوناً مكروسكوبية لا ندري مبلغها من الإحكام . وتجد حاسة العودة إلى الوطن ضعيفة في الإنسان ، لأنه يُكَمِّل عتاده القليل منها بأدوات الملاحة ونحوها ، أما في طائر كالحمام الزاجل فإنه يقطع آلاف الأميال عائداً إلى وطنه بلا «بوصلة» ولا خارطة ولا دليل ، فإذا التبس عليه الطريق حيناً ، حوَّم برهة ثم يقصد قُدماً إلى موطنه دون أن يضل .

والنحلة تهتدى إلى خليَّتها ، مهما طمست الريح في هبوبها على الأعشاب والأشجار كل دليل يُرى .

والطيور تهاجر من قُطر إلى قُطر ، بل من قارة قارة ، ثم تعود إلى مقرها الأول دون أن تخطئ .

ومن أعجب ما عُرِف في هجرات الحيوان وهدايتها : هجرة ثعابين الماء ، التي تهاجر ـ حين يكتمل نموها ـ من مختلف البرك والأنهار،وقد تقطع آلاف الأميال في المحيط، لتقصد كلها إلى الأعماق السحيقة جنوبي برمودا ، وهناك تبيض وتموت ، أما صغارها ـ تلك التي لا تملك وسيلة لتعرف بها أى شيء سوى أنها في مياه قفرة ـ فإنها تعود أدراجها وتجد طريقها إلى الشاطئ الذي جاءت منه أُمهاتها ، ومن ثَمَّ إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة . ولذا يظل كل جسم من الماء آهلاً بثعابين البحار ، لقد قاومت التيارات القوية ، وثبتت للأمداد والعواصف ، وغالبت الأمواج المتلاطمة على كل شاطئ ، ماضية في طريق ليس لها به أدنى علم من قبل ، حتى تصل إلى مياهها الخاصة بها ،ولم يحدث مرة أن صِيدَ ثعبان إفريقي في مياه آسيوية، أو أوربي في مياه أمريكية أو العكس .

إن المجال ذو سعة ، للحديث عن الهداية في عالم الحشرات والطير والدواب حتى إن المرء ليقف متحيراً عن

أى شيء منها يتحدث ؟ وما الذي يخصه منها بالحديث دون غيرها ؟

هل نتحدث هنا عن الهداية في مملكة النحل ، وكيف تُصمِّم وتُهندس ، وتبني وتُنسِّق ، وكيف توزِّع العمل وتتعاون على الإنتاج والحراسة ، مما يعلمه الدارسون ، وما أفاض فيه الكاتبون ؟ وحسبنا إشارة القرآن إلى هذه الهداية : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٦٨،٦٩).

أم نتحدث عن الهداية عند النمل : « تلك الحشرة الاجتماعية » التي يُضرب المثل بتعاونها وتضامنها ، والتي يبدو أنها تُطبِّق المبدأ القائل : « أعظم خير لأكبر عدد » أنها تَدَّخِر رزقها في الصيف ، وتحفظه في مخازن التموين في مستعمراتها ، حتى تنتفع به في أيام الشتاء ، حيث يتعذر

عليها الكسب والسعي والخروج من البيت . وإذ كان فيما خزنته ما ينبت عمدت إليه ففلقته فلقتين لئلا ينبت ، فإذا كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربع ، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد ، انتظرت به يوماً ذا شمس ، فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها ، ثم أعادته إليها . فمَنْ علَّمها هذا ، وهداها إليه ؟

ومن عجيب أمرها : أنها تدرك بالشم من البعد ما يدرك غيرها بالبصر أو بالسمع ، فتأتى من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان ، وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره ، فتحمله ، وإن كان أكبر من وزنها ، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها ، وجاءت معها بطائفة من أصحابها ، فجاءوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضاً ، حتى يتعاونوا على حمله ونقله . وليس للنمل ملك ولا رئيس كما للنحل إلا أن لها رائداً لا يكذبها ، يطلب الرزق في مظانه ، فإذا وقف عليه أخبر جماعته ، فخرجوا مجتمعين متعاونين كما ذكرنا ، وكل نملة تجتهد في صالح جماعتها ، غير مختلسة لنفسها من الحَب شيئاً .

أم نتحدث عن الهداية عند طير كالحمام ، الذي نرى الذكر والأنثى فيه يقتسمان أمر الفراخ بالعدل ، فتقع معظم الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى ، ومعظم جلب القوت والرزق (إطعام الفراخ في فمها) على الذكر ، وأنهما ليتعاونان في إطعام فرخهما ، ويتدرجان به من حَب لين رخو مخلوط بلعابهما إلى ما هو أشد منه وأقوى ، حتى إذا علما أنه قد أطاق الالتقاط بنفسه ، منعاه بعض المنع ، ليحتاج إلى اللَّقط ويعتاده ، فإذا أدركا أن حوصلته قد اتسعت وقويت ، وأن قوَّته قد تمت ، وأنهما إن فطماه فطماً تاماً قوى على الاستقلال بأمره ، تركاه يسعى ويكد في طلب رزقه وكفاية نفسه بنفسه ، وإذا سألهما الرزق كما كان من قبل ـ منعاه وضرباه ، ونُزعت تلك الرحمة العجيبة من قلبيهما ، وبدءا يعملان من جديد لإنجاب آخر .

أم نتحدث عن الهداية عند سائر الحيوانات ، وقد قال ابن القيم [1]: « إن هداية الحيوانات إلى مصالح معاشاها كالبحر حدَّث عنه ولا حرج » . وفيها يقول :

---

(١) في كتابه « شفاء العليل ـ في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ».

« من هدى الأُنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أياماً تهرب به من الذَّر والنمل ، لأنها تضعه كقطعة من لحم ، فهى تخاف عليه الذَّر والنمل ، فلا تزال ترفعه وتضعه ، وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتد ؟

ومن عَلَّمَ الأسد إذا مشى وخاف أن يُقتفى أثره ويُطلب عفى على أثر مشيته بذنبه ؟

ومن عَلَّم الثعلب إذا اشتد به الجوع أن يستلقى على ظهره ، ويحتبس نفسه إلى داخل بدنه حتى ينتفخ ، فتظن الطير أنه ميت فتقع عليه ، فيثب على من انقضى عمره منها؟

ومن علَّمه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلى صبغ معروف ، فيأخذ منه ، ويضعه على جرحه كالمرهم ؟

ومن علَّم الأُنثى من الفيل إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلى الماء فتلد فيه ، لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة ، لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان ، فتخاف أن تسقطه على الأرض فينصدع أو ينشق ، فتأتي ماءً وسطاً وتضعه فيه ، يكون كالفراش اللَّين والوطاء الناعم ؟

ومن علَّم العصفور إذا سقط فرخها أن تستغيث فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجيء فيطيرون حول الفرخ ، ويُحرِّكونه بأفعالهم ، ويُحدثون له قوة وهمية وحركة حتى يطير معهم ؟

ومن علَّم الحمامة إذا حملت أن تأخذ هي والأب في بناء العش ، وأن يُقيما له حروفاً تشبه الحائط ، ثم يُسَخِّناه ويُحدثا فيه طبيعة أُخرى ثم يُقَلِّبان البيض في الأيام حتى يفرخ ؟

ومن علَّم المرسلة منها ـ الحمام الزاجل ـ إذا سافرت ليلاً أن تستدل ببطون الأودية ومجاري المياه والجبال ومهاب الريح ومطلع الشمس ومغربها ، فتستدل بذلك وبغيره إذا ضلت ، وإذا عرفت الطريق مرَّت كالريح ؟

ومن علَّم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المُحكمة ، وتجعل في أعلاها خيطاً ثم تتعلق به ، فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة تدلَّت إليها فاصطادتها ؟

ومن علَّم الظبي ألا يدخل كُناسه إلا مستدبراً ، ليستقبل بعينيه ما يخافه على نفسه وخشفه ؟

ومن علَّم السنور إذا رأى فأرة في السقف أن يرفع رأسه كالمُشير إليها بالعودة ، ثم يشير إليها بالرجوع ، وإنما يريد أن يدُهشها ، فتنزلق فتسقط ؟

ومن علَّم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي ، حيث يرتفع عن مجرى السيل ، ليسلم من مدق الحافر ، ومجرى الماء ، ويُعمِّقه ، ثم يتخذ في زواياه أبواباً عديدة ، ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزاً رقيقاً ، فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء وخرج منه ، ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت إذا ضل عنه ؟

قال العلامة ابن القيم ، بعد أن أطال في هداية الحيوان : وهذا باب واسع جداً ، ويكفي فيه قوله سبحانه : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

(الأنعام:٣٨)

ويكفينا هنا أن نسأل الماديين : كيف أُتيح للذَّرات التي تتكون منها النحلة أو النملة أو الحمامة أو غيرها أن تهتدي إلى تلك العمليات المعقَّدة دون خالق يُرشدها ؟!

غير أن الذي ينبغي ذكره هنا هو بعض ما أمدَّنا به العلم الحديث من معرفة اتسع بها مدلول الهداية لأكثر مما التفت إليه ، وعنى به علماؤنا المتقدمون من هداية الحيوانات إلى مصالحها ومعيشتها ، ومابه بقاؤها وتكاثرها ـ وبهذه السعة في معنى الهداية . استبنا في ضوء العلم سر التعميم المطلق في قوله تعالى : ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾(طه:٥٠) .

(ب) ولن نتحدث هنا عن عجائب الهداية في عالم النبات ، وكيف يمتص كل نوع منه ما يناسبه من عناصر الأرض بنسب محدودة ومقادير معلومة ، رغم اتحاد التربة واختلاط العناصر فيها . فإذا هذا ملح ، وهذا حلو ، وهذا حامض ، وهذا مُزّ ، وهذا مُرّ ، وهذا بين بين . ترى الشجرتين أو الشجرات متجاورة بل متلاصقة ، التراب واحد ، والماء واحد ، والهواء واحد ، والإضاءة واحدة ،

والإشراف واحد ، ولكن شجرة منها لا تخطئ يوماً فتأخذ ما ليس من مخصصاتها أو فوق ما ينبغي ، أو دون ما ينبغي . وهى الحقيقة التي سجَّلها القرآن المُعجز فقال : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: ٤).

(جـ) إنما الذي نتحدث عنه هنا ، ونَلفت النظر إليه هو ما اهتدى إليه العلم من تكوين خلايا الحياة في الجسم الحي وعملها وتضامنها ، وكيف تهتدي إلى طريقها وتصيب هدفها ، ولا تخطئه ضمن ملايين الاحتمالات .

إن كل فرد منا أُمة بل أُمم منتظمة من ملايين ، بل بلايين من الخلايا . وكل خلية مواطن صالح يؤدي نصيبه الكامل من الخدمة الخالصة للمجموع في أمانة وذكاء ومهارة .

وكل خلية من خلايا الحياة تحمل في تركيبها من الخصائص مالا تحمله خلية أخرى في عالم المادة جمعاء .

وأول هذه الخصائص قابليتها للتكرار والتنويع وتعويض النقص وحفظ النوع ، وتجديده على النحو الذي ينفرد به كل نوع من الأنواع . فكل خلية من الجسم تعمل ما ينبغي ، على النحو الذي ينبغي ، وفي الوقت الذي ينبغي أن تعمل فيه . إن كل خلية تؤدي عملها المنوط بها لصالح بنية الجسم ، في تعاون منقطع النظير مع سائر الخلايا ، التي تُقدَّر بعدد الجنس البشري كله على ظهر الأرض ، كأن كل خلية على علم بالخلايا الأخرى وما تطلبه منها ، ولا تضل واحدة منها طريقها لمرض أو عجز طرأ عليها إلا تكفَّل سائرها بإصلاح خطئها وتقويم ضلالها .

وماينهدم وما ينحل كل يوم من هذه الخلايا نتيجة الجهد والعمل ، يذهب ويندفع إلى حيث ينبغي أن تندفع الأنقاض والأجزاء المنحلة ، ويتلقى الجسم العوض الذي يعيدها إلى الانتظام من جديد ، عن طريق الغذاء .

وإن العجب ليبلغ منا مداه إذا رجعنا بكل إنسان منا إلى نقطة البداية في تاريخه ، إلى النطفة . . إلى الخلية الأُولى

الساذجة ، الخلية الملقَّحة التي لا تكاد ترى بالمجهر ، والتي تحتوي الدفقة الواحدة منها أُلوف الألوف . لننظر ماذا يقول العلم في هذه الخلية الواحدة : كيف تمضي في إنشاء البناء الجسدي للإنسان ؟ وأى هداية منحتها هذه الخلية التي لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة ؟ إنها تبدأ في الحال بمجرد استقرارها في الرحم ، في عملية بحث عن الغذاء ، حيث تزودها الهداية الإلهية بخاصة أكَّالة ، تحول بها جدار الرحم حوله إلى بركة من الدم السائل المعد للغذاء الطازج ، وبمجرد اطمئنانها على غذائها تبدأ في عملية جديدة ، عملية انقسام مستمرة ، تنشأ عنها خلايا ، وتعرف هذه الخلية الساذجة : ماذا هى فاعلة ، ماذا هى تريد . إنها تعرف الهدف وتعرف الطريق . إنها مكلفة أن تخصص كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة لبناء ركن من أركان هذه « العمارة » الهائلة : عمارة الجسم الإنسانى . فهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الهيكل العظمي ، وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز العضلي ، وهذه المجموعة

تنطلق لتنشئ الجهاز العصبي ، وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز اللِّمفاوي ، إلى آخر هذه الأركان الأساسية في العمارة الإنسانية .

ولكن العمل ليس بمثل هذه البساطة . إن هنالك تخصصاً أدق ، فكل عظم من العظام ، وكل عضلة من العضلات ، وكل عصب من الأعصاب ، لا يشبه الآخر ، لأن العمارة دقيقة الصنع ، عجيبة التكوين ، متنوعة الوظائف ، ومن ثَمَّ تنتظم كل مجموعة من الخلايا المنطلقة لبناء ركن من العمارة أن تتفرق طوائف متخصصة ، تقوم كل طائفة منها بنوع معين من العمل في الركن المخصَّص لها من العمارة الكبيرة . إن كل خلية صغيرة ، تنطلق وهي تعرف طريقها . تعرف إلى أين هي ذاهبة ، وماذا هو مطلوب منها ، ولا تخطئ واحدة منها طريقها في هذه المتاهة الهائلة ، فالخلايا المكلَّفة بأن تكون العين تعرف أن العين ينبغي أن تكون في الوجه ، ولا يجوز أبداً أن تكون في البطن أو القدم أو الذراع ، مع أن كل موضع من هذه

المواضع ، يمكن أن تنمو فيه عين ، لو أخذت الخلية الأُولى المكلفة بصنع العين ، وزُرعت في أى من هذه المواضع ، لصنعت عيناً هنالك . ولكنها هى بذاتها حين تنطلق ، لا تذهب إلا للمكان المخصص للعين في هذا الجهاز الإنسانى المعقَّد فمن ترى قال لها : إن هذا الجهاز يحتاج إلى عين في هذا المكان دون سواه ؟ ويا ترى من ذا الذي رعاها ووجهها وهداها إلى طريقها في تلك المتاهة التي لا هادي فيها ولا دليل ؟

وكل تلك الخلايا فرادى ومجتمعة ، تعمل في نطاق ترسمه لها مجموعة معينة من الوحدات كامنة فيها ، وهي وحدات الوراثة (الجينات) الحافظة لسجل النوع ولخصائص الأجداد . فخلية العين ـ وهى تنقسم وتتكاثر لكى تكون العين ـ تحاول أن تحافظ في أثناء العمل على شكل معين للعين ، وخصائص محدودة ، تجعلها عين إنسان لا عين حيوان آخر ، وإنسان لأجداده شكل معين للعين وخصائص معينة . وأقل انحراف في تصميم هذه

العين من ناحية الشكل أو ناحية الخصائص ، يحيد بها عن الخط المرسوم . فمن ذا الذي أودعها هذه القدرة ، وعلَّمها ذلك التعليم ؟ وهى الخلية الساذجة التي لا عقل لها ولا أدراك ، ولا إرادة لها ولا قوة ؟ ومن ذا الذي علَّمها ما يعجز الإنسان كله عن تصميمه ، لو وُكِّل إليه تصميم عين أو جزء من عين ، بينما خلية واحدة منه أو عدة خلايا ساذجة ، تقوم ، بهذا العمل العظيم[1]؟

هل عند الماديين الجاحدين من جواب لهذا السؤال بل هذه الأسئلة ؟ هل عندهم من تفسير لهذه الظواهر ؟

إنهم لا يجدون جواباً ، ولا يعرفون تفسيراً ، ما داموا يفرون من الجواب الحتمي الذي لا جواب غيره ، والتفسير الضروري الذي لا تفسير سواه : وهو وجود الله .

• والآن . . . ما موقف الماديين ؟

والآن بعد هذا العرض والإيضاح ، ما موقف الماديين المنكرين أمام دلالة الكون الصادقة وآياته الناطقة ؟

---

(١) انظر : تفسير سورة الطارق من (الظلال) للشهيد سيد قطب .

ما موقفهم أمام البرهان الكوني بشبعه الأربع ؟ أيجحدون الخلق في هذا العالم ؟ أم يجحدون التسوية والإحكام ؟ أم يجحدون التقدير والنظام ؟ أم يجحدون الهداية والإلهام ؟

إنهم إن جحدوا ذلك فقد أنكروا البداهة والحس والمشاهدة ، وأنكروا كل آثار العلم وتجاربه وملاحظاته .

أم تراهم يقرُّون بالخَلق والتسوية والتقدير والهداية ، ثم يقفون عند هذا الحد ؟ فأى منطق إذن يحتكمون إليه ، أو أى علم يستندون إليه ؟

أخلق ولا خالق ، وتسوية ولا مسو ، وتقدير ولا مقدِّر ، وهداية ولا هاد ؟!

أما العقل والعلم والبصيرة والمنطق ، فلا تملك إلا أن تتلو قول الله ـ جل شأنه : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (الأعلى: ١-٣).

● زعم المصادفة

سيقول الماديون المنكرون لوجود الله : إن وجود الخالق الذي يؤمن به المتدينون ، ليس ضرورة عقلية لتفسير ما في

الكون من خَلْقٍ وتسوية ، وتقدير ، وهداية . إذ يمكن أن يكون كل هذا العالَم بما فيه من الحياة والعقل ، وما فيه من الإحكام والتناسق والتوازن الذي تحكمه سنن مطردة ، وقوانين في غاية الدِّقة ، إنما وجد بمحض المصادفة والاتفاق والاعتباط . وضربوا لذلك مثلاً : صندوقاً من الحروف الأبجدية يُعاد تنضيده مئات المرات وأُلوف المرات وملايين المرات ، على امتداد الزمان الذي لا تحصره السنون ولا القرون ، فلا مانع أن تُسفر هذه التنضيدات المتكررة في مرة من المرات عن مقالة جيدة أو قصيدة رائعة ، ولا عمل في إتقان حروفها على هذه الصورة لغير المصادفة المحض .

وردنا على هؤلاء :

أولاً : إن القول بالصدفة والاعتباط ينافي البداهة والفطرة التي تؤمن بالسببية إيماناً أولياً لا يحتاج إلى تعلم أو تلقين . إن الذي أودع في ذات الإنسان ذلك الشعور القوي العميق بوجود الله ، الذي نسميه « الفطرة » أودع

كذلك في عقله قانوناً مطرداً ثابتاً يهدي إليه سبحانه وتعالى ، وهو ما يُعرف بقانون «السببية» أو «العلّية» .

ومعنى هذا القانون : أن العقل البشري - بدون تلقين ولا تعليم - يوقن أن لكل شيء في الوجود سبباً ، وأن لكل معلول علّة ، ولكل فعل فاعلاً ، ولكل أثر مؤثراً ، وأن شيئاً ما لا يصدر عن غير سبب .

حقيقة نلمسها في أنفسنا ، ونشاهدها في أطفالنا ، دون أن نُعلِّمهم إياها . ولهذا نرى الطفل كثير التساؤل عن سبب كل شيء من الجزئيات التي حوله ، ومن الأطفال من يرهق والديه بكثرة الأسئلة عن الأسباب ، وأسباب الأسباب حتى يقف عند سبب مقنع ، كل ذلك لأن العقل الفطري يؤمن بالسببية في حدوث الأشياء ، ولا يؤمن بالوجود المعتبط لها ، ولا بأنها تسير بالاحتمالات والصدفة والجزاف .

فإذا أدرك عقل الناشئ الكون كله كوحدة ، وجاوز مرحلة الوقوف عند الجزئيات ، سأل السؤال الأكبر الذي ما خُلِقَ إلا ليسأله ويجيب عليه وهو: من خلق هذا الكون؟

إن قانون «السببية» المركوز في فطرته هو الذي جعله يسأل هذا السؤال ، ولا يعتقد أن هذا الكون وجِدَ وحده ، بلا مُوْجِد ، فمَن المُوجدِ الخالق ؟ إنه بالطبع ليس أنا ولا أنت ولا غيرنا من البشر ، لأننا أنفسنا مخلقون عاجزون محتاجون إلى خالق غير مخلوق ، قادر غير عاجز ، وذلك هو «الله» .

لا يمكن أن يُقال : أن الموجودات كلها ناقصة ، وإن الكمال يتحقق في الكون كله ، لأن هذا كالقول بأن مجموع النقص كمال ، ومجموع المتناهيات شيء ليس له انتهاء ، ومجموع القصور قدرة لا يعتريها القصور . فإذا كانت الموجودات غير واجبة لذاتها فلا بد لها من سبب يوجبها ، ولا يتوقف وجوده على وجود سبب سواه [1].

وهذه النتيجة هي التي عبَّر عنها الأعرابي قديماً ، ببساطة وسذاجة حين سألوه عن «الله» كيف عرفه فقال : البعرة تدل على البعير ، وأثر السير على المسير ، فكيف بسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ـ أفلا يدل ذلك على العلِّي الكبير ؟ ! !

---

(١) انظر : الله ـ العقاد ـ صـ ١٤ .

ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار العرب الذين نزل بلسانهم إلى ما حولهم من مخلوقات ، ليهتدوا بها إلى الإيمان بخالقها الواحد فقال : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾
(الغاشية:١٧-٢٠)

إن الإيمان بالله ضرورة عقلية ، لتفسير خلق هذا العالم ، وبدون الإيمان يظل هذا السؤال الذي أثاره القرآن حائراً قلقاً بغير جواب : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾
(الطور:٣٥،٣٦)

وهم - بداهة - لم يُخْلَقوا من غير شيء ، وهم أيضاً لم يَخْلِقوا أنفسهم . . ولم يدع أحد منهم ، ولا ممن قبلهم أو بعدهم أنه خالق السموات والأرض ؟ فمن الخالق إذن ؟

ليس لهذا السؤال إلا جواب واحد ، لا يملك الإنسان إذا تُرِكَ ونفسه أن يُجيب به . ذلك هو ما أجاب به الأعرابي

في باديته ، وما أجاب به المشركون أنفسهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦١)؟ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦٣).

وهو عين ما يُجيب به أقطاب العلم الحديث اليوم ، يقول أحدهم : « تثبت العلوم بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أبدياً . ولا تقتصر ما قدمته العلوم على إثبات أن لهذا الكون بداية ، فقد أثبتت فوق أنه بدأ دفعة واحدة منذ ملايين السنين . واليوم لا بد لمن يؤمن بنتائج العلوم أن يؤمن بفكرة الخلق أيضاً . وليس من المعقول أن يكون هناك خلق بدون خالق ، هو الله »[1].

وثانياً : إن العلم الحديث قد أغلق ـ إلى الأبد ـ باب القول بأن هذا الكون أو شيئاً فيه قد وُجِدَ بالمصادفة ، فإن

---

(١) من مقال للعالم الأمريكي « إدوارد لوثر كسبل » في كتاب « الله يتجلى في عصر العالم ».

العلم الرياضي ـ الذي هو منظِّم حسابات العلم الحديث ـ قد بحث موضوع المصادفة على أساس رياضي ، وبيَّن بوضوح : أن احتمال وجود الكون أو شيء فيه بالمصادفة هو « الصفر الرياضي » الذي يعرفه الرياضيون أصغر من أصغر عدد يمكن تصوره أو تحديده .

إن المصادفة ـ وإن كانت تبدو لنا شاردة غير منتظمة فهى تخضع لقوانين صارمة تقيدها تقييداً وثيقاً .

ويضرب لذلك الأستاذ « أ.ك.موريسون » مثلاً يقول [1] : خذ عشرة « بنسات » كلاً منها على حدة وضع عليها أرقاماً مسلسلة من (١) إلى (١٠) ثم ضعها في جيبك ، وهزها هزاً شديداً ، ثم حاول أن تسحبها من جيبك حسب ترتيبها من (١) إلى (١٠) .

« إن فرصة سحب البنس رقم (١) هى بنسبته إلى (١٠)، وفرصة سحب رقم (١) ورقم (٢) متتابعين هى بنسبة (١ إلى ١٠٠) وفرصة سحب البنسات التي عليها أرقام (١ ، ٢ ،

---

(١) الفصل الأول « عالمنا الفذ » من كتاب « العلم يدعو إلى الإيمان » صـ ٤٩ .

٣) متتالية ، هى بنسبة (١ إلى ١٠٠٠) ، وفرصة سحب (١، ٢، ٣، ٤) متتالية هى بنسبة (١إلى ١٠,٠٠٠) ، وهكذا حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول من (١ إلى ١٠) هى بنسبة (١ إلى ١٠ ملايين)».

«والغرض من هذا المثل البسيط أن نبين لك كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة».

وإذا كانت الأعداد تتكاثر بهذه الصورة ضد المصادفة في أول مرة ، فإنها تتكاثر وتتكاثر بما لا يتصور إذا أردنا تكرار التجربة مرات أخرى .

يقول العالم المذكور :

«لنفرض أن معك كيساً يحوى مائة قطعة رخام ، ٩٩ منها سوداء ، وواحدة بيضاء ، الآن هز الكيس ، وخذ منه واحدة . إن فرصة سحب القطعة البيضاء هى بنسبة (١ إلى ١٠٠)،والآن أعد قطع الرخام إلى الكيس،وابدأ من جديد ، إن فرصة سحب القطعة البيضاء لا تزال بنسبة واحد إلى مائة . غير أن فرصة سحب القطعة البيضاء مرتين متواليتين هى بنسبة واحد إلى عشرة آلاف (١٠٠X١٠٠)» .

« والآن جرِّب مرة ثالثة : إن فرصة سحب تلك القطعة البيضاء ثلاث مرات متتالية هي بنسبة (١٠٠X١٠,٠٠٠) أي واحد في المليون . ثم جرِّب مرة أُخرى أو مرتين تصبح الأرقام فلكية »[١].

وهذا المثل يدلنا بوضوح على أن ما يحدث بالمصادفة يصعب جداً أن يتكرر ، ويستحيل أن يستمر وقوعه فكل ما نراه من ظواهر طبيعية ، تتجدد باستمرار ، وتتكرر بانتظام ، وتمضي بلا خلل ولا اضطراب يستحيل أن يقع هكذا بالمصادفة العمياء ، وحين تكون الحقائق هكذا ناطقة ، وحين تعترف بخواص عقولنا يكون من الخبل والسفه أن نرد الحياة والنظام والتقدير في العالم إلى صدفة موهومة ، ونغفل كل منطق وكل برهان .

وبهذا نعلم أن صندوق الحروف ـ الذي ضربه بعض الماديين مثلاً لعمل الصدفة ـ هو وهم من الأوهام ، وهو ـ بمقتضى المنطق الرياضي المذكور ـ يستحيل أن يحدث ،

---

(١) الفصل السادس عشر «المصادفة» من كتاب «العلم يدعو إلى الإيمان» صـ ١٩١ .

ولو فُرِضَ حدوثه فيستحيل أن يتكرر وأن يثبت ، فضلاً عما في هذا المثل نفسه من خلل ينقض دعوى قائليه ، ويستلزم فرضاً غير فروض المصادفات ، كما يقول الأستاذ العقاد :

(أ) فقد فاتهم أنهم قدَّموا الفرض بوجود الحروف المتناسبة التي ترتبط بعلاقة اللَّفظ ، وينشأ منها الكلام المفهوم . . فمن أين لهم أن أجزاء المادة المتماسكة ، ترتبط بينها بعلاقة التشاكل أو التشكيل على منوال العلاقة التي بين الحروف الأبجدية ؟ ومن أين للمادة هذا التنويع في الأجزاء ؟ ومن أين لهذا التنويع أن تكون فيه قابلية الاتحاد على وجه مفهوم ؟ .

(ب) وفاتهم كذلك : أنهم قدَّموا الفرض بوجود القوة التي تتولى التنسيق والتنفيذ ، وليس من اللازم عقلاً أن توجد هذه القوة بين الحروف .

(جـ) وفاتهم مع هذا وذاك أنهم فرضوا في هذه القوة الجامعة : أنها تُعيد تنسيق الحروف على كل احتمال ، كأنها تعرف بداءة كيف تكون جميع الاحتمالات .

(د) وفاتهم ـ عدا ما تقدم ـ أن الوصول إلى تنضيدة مفهومة منظومة ، لا يستلزم الوقوف عندها وتماسك الأجزاء عليها. .[1].

• دلالة الأخلاق

ومن دلائل وجود الله . ما اعتمد عليه الفيلسوف الألماني الكبير «عمانويل كانت» وهو دلالة الوازع الأخلاقي المركوز في النفس الإنسانية .

وجوهر هذا الدليل ـ بعد تنقيته من الحواشي والزوائد والشوائب : أن الكون بما فيه من خَلْقٍ وتسوية ، وما فيه من تقدير وهداية ، يدل على وجود «الصانع القادر» ولكنه لا يلزم من قدرته وصنعته أنه «الإله» الذي يصدر منه الخير والنِعَم ، وتتجه إليه القلوب بالعبادة والحب والحمد العظيم .

وإنما يثبت وجود هذا «الإله» بدلالة وعلامة في النفس الإنسانية ، لا يتأتي وجودها فيها بغير وجود إله . وتلك هي دلالة الوازع الأخلاقي أو دلالة الواجب أو دلالة الضمير .

---

(١) من كتاب «الله» للأستاذ العقاد صـ ٢١٦ .

فمن أين استوجب الإنسان أن يدين نفسه بالحق كما نعرفه ، إن لم يكن في الكون قسطاس للحق ، يغرس في نفسه هذا الوجوب ؟ ومن أين تقرَّر في فطرة الإنسان أن الواجب الكريه لديه أولى به من إطاعة الهوى المحبَّب إليه ، وإن لم يطَّلع أحد على دخيلة سره ؟

إن وجود هذا الوازع الأخلاقي في نفس الإنسان دليل على أن هناك غارساً غرسه فيها ليستقيم سير الحياة ، وينتظم أمر الجماعة ، وذلك هو الله مصدر الخير والرحمة والجمال .

ويشير القرآن إلى هذا الدليل فيقول : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا** ﴾ (الشمس:٧،٨) وإلهام التقوى للنفس يعني منحها الوازع الخُلقي الذي يقاوم دواعي الشهوة والفجور .

ويعترض بعض الناس على هذا الدليل بأن وجود الأخلاق أو الضمير أو الشعور بالواجب ، إنما هي « عادة اجتماعية » رسخت في النفس بمضي الزمن ، حتى استحالت إلى رغبة مقبولة أو مطلب محبوب .وينسى هؤلاء أن « العادة الاجتماعية » ليست بالتفسير الذي يعلِّل نشأة

الأخلاق ، وإنما هى تكرير للمشاهدة ، كما رأيناها ، فإذا سألهم سائل : لِمَ نشأت العادة الاجتماعية ؟ قالوا للمصلحة الاجتماعية . ولكنهم لا يسألون أنفسهم : لماذا كانت المصلحة الاجتماعية أمراً مفروغاً منه ، مقضياً بوقوعه [1]؟

إن ترجيح المصلحة الاجتماعية العامة على المصالح والشهوات الفردية ، هو أثر من آثار الوازع أو الضمير الذي أنكروه .

● دلالة الوحى

ومن أدلة وجود الله سبحانه : ما جاء به رسل الله المتتابعون من عهد نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام ، فكلهم دعوا أقوامهم إلى الله وإلى توحيده وحسن الصلة به ، وحذَّروهم من الشرك به أو الإعراض عنه .

وقام بينهم وبين أقوامهم صراع عنيف مرير ، ليس لأن هؤلاء الأقوام ينكرون الله ، بل لأنهم ينكرون أن هؤلاء بأعيانهم قد خصُّوا بإرسال الله إياهم ، فأيَّد الله رسله بالآيات البيِّنات والمعجزات الباهرات التي أثبتت صدقهم

(١) انظر «الله» للعقاد ، صـ ٢٣١ ، ٢٣٢ .

وقطعت ألسنة معارضيهم ، فآمن منهم من ينشدون الحق ، وكفر المعاندون والمستكبرون ظلماً وعلواً .

ومن أظهر هذه الآيات : أن هؤلاء الرسل - برغم ضعفهم وقلة أعوانهم وقوة خصومهم وكثرتهم - قد نصرهم الله ، وخلد في الناس ذكرهم ، وأهلك عدوهم ، ومكن لأتباعهم في الأرض ، وجعلهم أئمة ، وجعلهم الوارثين .

وبقي من آيات الرسل آية لا ينال منها تعاقب الليل والنهار ، ولا تبلى جدتها ، بل تزداد على مر الأعوام والأعصار ، وتلك هي الكتاب المحفوظ الخالد ، الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه «القرآن الكريم» .

إن هذا الكتاب المعجز ليس آية ودليلاً على نبوة محمد ﷺ فحسب ، بل هو آية ودليل على وجود الله سبحانه وتعالى وعلى واسع علمه وحكمته وكمال أسمائه وصفاته . وكلما تقدم العلم ، واتسعت معارف البشر ، اكتشف العالمون في هذا القرآن من الأسرار والكنوز ما يزيل شك الشاكين ، ويزيد الذين آمنوا إيماناً ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت:٥٣).

إن الرسالات السماوية آية من آيات وجود الله تعالى ووحدانيته وكماله ، فإن من رحمة الله أنه لم يكتف بما أودعه في الفِطَر والعقول ، وفي الأنفس والآفاق من شواهد تهدي إليه وتدل عليه ، بل أرسل رسله بالبيِّنات ، ليهدوا الناس إلى صراط العزيز الحميد . وليس مما يقبله العقل السليم أن يكون هؤلاء الرسل الكرام في مختلف الأُمم ، وشتَّى العصور ، قد تواطئوا على أنهم مبعوثون لإله لا وجود له .

ولو فُرِضَ هذا ـ وفرض المستحيل جائز كما يُقال ـ فمَن الذي أيدهم ونصرهم وهم الفقراء مالاً ، الضعفاء جاهاً ، القليلون أعواناً ؟ ومَن الذي خرق لهم العادات ، وأمدهم بآيات معجزات ، آخرها وأعظمها وأخلدها هو القرآن العظيم ؟

ومن الذي أنزل هذا الكتاب ، وأنزل من قبله التوراة والإنجيل ؟ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام: ٩١)

* * *